في الأدب العربي

ابن خلدون ومكيافيللي (١)

للأستاذ محمد عبد الله عنان

بعد وفاة ابن خلدون بأكثر من قرن ، وضع نيكولو مكيافيللي المؤرخ والسياسي الايطالي (٢) كتابا يتبوأ في التفكير الغربي مكانة كتلك التي تتبوأها مقدمة ابن خلدون في التفكير الاسلامي . ذلك هو كتاب « الامير » Ilprincipe ، وهو كأثر ابن خلدون قطعة بديعة من التفكير السياسي والاجتماعي . تمتاز بكثير من القوة والطرافة والابتكار الفائق . واذا لم يك بين الأثرين كثير من أوجه الشبه المادي ، فان بينهما كثيرا من أوجه الشبه المعنوي ، وبين الذهنين بالأخص مشابهة قوية من حيث الظروف والبيئة التي تكون كل فيها ، ومن حيث فهمه للتاريخ والظواهر الاجتماعية ، ومن حيث قوة العرض والاستدلال بشواهد التاريخ .

ونستطيع أن نرجع كثيرا من أسباب هذه المشابهة بين المفكرين العظيمين الى تماثل عجيب في العصر والظروف السياسية والاجتماعية التي عاش كل منهما فيها . فقد كانت الامارات والجمهوريات الايطالية التي عاش مكيافيللي في ظلها تعرض في ايطاليا نفس الصور والاوضاع السياسية التي تعرضها الممالك المغربية ايام ابن خلدون ، من حيث اضطرام المنافسات والخصومات فيما بينها ، وطموح كل منها الى افتتاح الاخرى ، وتقلب اماراتها ورياساتها بين عصبة من الزعماء والمتغلبين . وقد اتصل مكيافيللي بهذه الدول ، وقضى عصرا في خدمة احداها وهي وطنه فلورنسا (فيرنتزا) وانتدب لمهام ساسية مختلفة ؛ واستطاع ان يدرس عن كثب كثيرا من الحوادث والتطورات السياسية التي تعاقبت في عصره ، وان يجعل من هذا الدرس مادة لتأملاته عن الدولة والأمير ، كما جعل ابن خلدون من الحوادث التي عاصرها واشترك فيها مادة لدرسه وتأملاته

على أن المفكر المسلم أغزر مادة وأوسع آفاقا من المفكر الايطالي . ذلك أن ابن خلدون يتخذ من المجتمع كله وما يعرض فيه من الظواهر مادة لدرسه ، ويحاول أن يفهم هذه الظواهر وان يعللها على ضوء التاريخ ، وان يرتب على سيرها وتفاعلها قوانين اجتماعية عامة . ولكن مكيافيللي يدرس الدولة فقط ، أو يدرس أنواعا معينة من الدول ، هي التي يعرضها التاريخ اليوناني والروماني القديم ، وتاريخ ايطاليا في عصره ، ويدرس شخصية الأمير أو المتغلب الذي يحكم الدولة ، وما يلحق بها من الخلال الحسنة أو السيئة ، وما يعرض لها من وسائل الحكم . وهذه الدراسة المحدودة المدى تكون جزءا صغيرا فقط من دراسة ابن خلدون الشاسعة ، هو الفصل الثالث من الكتاب الأول من المقدمة ، وهو الذي يدرس فيه احوال الدول العامة والملك والمراتب السلطانية . وحتى في هذا المدى المحدود يتفوق ابن خلدون على مكيافيللي تفوقا عظيما . ويبتدع هنا نظرية العصبية ، ونظرية اعمار الدول ، ويتناول خواص الدولة من الناحية الاجتماعية وان كان مكيافللي من جهة أخرى يتفوق على ابن خلدون في سلاسة المنطق ، ودقة العرض والتدليل ، ورواء الاسلوب .

كتب مكيافيللي كتابه « الأمير » سنة ١٥١٣ واهداه الى لورنزو دي مديتشي « الافخم » أمير فلورنسا ، وهو يشير الى غرضه من وضع كتابه في قوله للأمير في خطاب الاهداء : « ومع اني اعتبر هذا المؤلف غير خليق بمطالعة محياك ، فاني اعتمد جل الاعتماد على عطفك ورقتك في قبوله ، فلست استطيع في اهدائك خيرا من أن اقدم اليك فرصة لتفهم في اقصر الاوقات كل ما عرفته خلال أعوام طويله ، وفي غمار من المتاعب والاخطار » وفي قوله : « فتناول ياذا الفخامة هذه الهدية الصغيرة بنفس الروح الذي

---

(١) من كتابه ذكرى ابن خلدون وسيصدر قريبا

(٢) نيكولو مكيافيللي Nicolo Machiavelli كاتب ومؤرخ وسياسي ايطالي كبير ، ولد سنة ١٤٦٩ بمدينة فلورنسا وتوفي بها سنة ١٥٢٧ واشتغل حينا سكرتيرا للسياسة الخارجية في حكومة فلورنسا . وكلف بعدة مهام سياسية في ايطاليا وفرنسا والمانيا ، ولما عاد آل مديتشي لحكم فلورنسا سنة ١٥١٢ ، قبض عليه بتهمة التآمر وعذب ثم افرج عنه بوساطة البابا ليون العاشر . وعندئذ اعتزل الحياة العامة وكتب عدة مؤلفات شهيرة منها كتابه « الامير » وتاريخ فلورنسا . ومقالات عن ليفي المؤرخ الروماني ؛ وعدة رسائل سياسية وقطع مسرحية

أرسلها به ، وإنك اذا قرأته بامعان وتأمل ، فسوف تعرف خالص رغبتي فان تظفر بهذه العظمة التي يمني بها حسن الطالع وتمنى بها خلالك » (١) واذن فقد اراد مكيافيللي أن يقدم بكتابه «الأمير» مرشدا لامراء عصره يرشدهم الى امثل طرق الحكم ، وامثل الوسائل لسيادة الشعوب التي يحكمونها . ومكيافيللي يستمد آراءه ونظرياته من حوادث التاريخ القديم ، وبالاخص من حوادث عصره التي شهدها وخبرها ، ويرتب عليها احكاما وقواعد عامة ، كما يرتب ابن خلدون مثل هذه الاحكام والقواعد على دراسته للمجتمع . ويبسط مكيافيللي دراسته في بحوث موجزة ويبدأ بالحديث عن أنواع الامارات ، ووسائل اكتسابها ، وعن الوسائل التي تحكم بها المدن او الامارات التي كانت تعيش في ظل قوانينها قبل ان تغلب ، وعن الامارات التي تقوم بالفتح وكفايات الامير الشخصية ، وعن تلك التي تغنم على يد آخرين او بطريق الحظ ، او تلك التي تغنم بالغدر والخيانة ، وعن الامارات المدنية والدينية ، وعن انواع الجيوش والجنود المرتزقة ، وما يجب ان يعرفه الامير عن فن الحرب . ثم يتناول بعد ذلك شخصية الامير ، وما يحمد فيه من الخلال وما يذم ، وعن الكرم والشح ، والرأفة والقسوة وعن الطريقة التي يجب ان يحفظ بها الامراء وعودهم ، وعما يجب عليهم لتجنب بغض الشعب واحتقاره ، وما يجب عليهم لاكتساب الشهرة ، والمجد ، وأخيرا يتحدث عن حجاب الامير «سكرتارية» وعن وجوب تجنب الملق ، وعن الاسباب التي فقد بها أمراء ايطاليا دولهم ، وعما يمكن أن يؤديه حسن الطالع في سير الشئون البشرية ، ثم يختتم بالحث على تحرير ايطاليا من نير الاجانب أو غزوات البرابرة كما يسميهم

تلك هي المباحث التي جعلها مكيافيللي قوام فلسفته عن الدولة والأمير . ويبدو بالاخص مما كتبه عن «الامير» انه يعالج موضوعا عالجه المفكرون المسلمون قبل ابن خلدون بعصور طويلة ، هو موضوع « السياسة الملكية » وهو موضوع يجري منذ القرن الثالث الهجري في التفكير الاسلامي مع بحث أو علم خاص هو علم السياسة على نحو ما بينا في فصل سابق . وقد رأينا مما تقدم أن « السياسة » كانت تفهم عند العرب في العصور الاولى بمعنى ضيق جدا هو شرح الخلال الحسنة التي يجب أن يتصف بها الامير ، والعيوب التي يجب أن يبرأ منها لكي يصلح لرآسة الدولة وتبوء الملك ؛ ولكي يستطيع الحكم بأهلية وكفاية . ثم توسع المفكرون المسلمون في فهم معنى «السياسة» وقسموها الى عدة أنواع وتناولوا «السياسة الملكية» من الناحية الفقهية وكذا من الناحية الادارية وبحثوا مركز الأمير من الناحية الشرعية وتحدثوا عن الخطط السلطانية . وظاهر ما يتناوله المفكر الايطالي من خواص الأمير وخلاله وواجباته هو ضرب مما تناوله المفكرون المسلمون منذ أواخر القرن الثالث الهجري . من ذلك ما كتبه ابن قتيبة في كتاب «عيون الاخبار» والماوردي في كتاب «الاحكام السلطانية» والطرطوشي في كتاب «سراج الملوك» والغزالي في كتاب «التبر المسبوك» ، ثم ابن الطقطقي في كتاب «الآداب السلطانية» . وهو موضوع تناوله ابن خلدون فيما تناوله من أحوال الدول العامة والملك ، اذ يتحدث هنا عن حقيقة الملك وأصنافه ، وعن معنى الخلافة والامامة ، وعن مخالف المذاهب والآراء في حكم الامامة ثم عن الخطط السلطانية (١) ، وحديثه في ذلك يمتاز عن حديث اسلافه بما يتخلل بحثه وتدليله من الملاحظات والتأملات الاجتماعية التي لم يوفق اليها باحث قبله

على أن مكيافيللي يمتاز في بحثه بروح عملية جافة . وبينما يتحدث المفكرون المسلمون عن الامير أو الحاكم كما يجب أن يكون ، وعن خلاله المثلى كما يجب أن تكون ، اذا بالمفكر الايطالي ينظر الى الامير الأمثل نظرة عملية محضة . فيصفه كما هو في الواقع ، ويتصور خلاله المثلى فيما هو حادث بالفعل ، ويرتب تدليله ونتائجه على ما احرز الامير وأحرزت خلاله من النجاح أو الفشل دون تأثر بما اذا كانت هذه الصور والخلال تتفق مع مبادىء الاخلاق المثلى كما فهمت خلال العصور . ومن هنا تستمد فلسفة مكيافيللي لونها القاتم ، وتوصم آراؤه ونظرياته السياسية بتلك الصرامة والقسوة والخبث التي جعلتها حتى عصرنا مضرب الامثال للسياسة الغادرة التي لا ضمير لها ولا وازع ، والتي جردت من كل نزاهة وعفة ، وتغاضت عن كل المثل الانسانية والاخلاقية . والى القارىء بعض نماذج من تلك الآراء التي طبعت فلسفة مكيافيللي ، وأميره الامثل بذلك الطابع الاسود :

يتبع

(١) كتاب الامير The Prince - الترجمة الانجليزية طبعة افريمان ص ٢ و ٣

(١) راجع المقدمة ص ١٥٦ و ١٥٨ الى نهاية الباب

يصدر قريباً

ذكرى ابن خلدون

عرض نقدي لحياته
وتراثه الفكري والاجتماعي
ومكانة تفكيره من النقد الحديث

بقلم

الاستاذ محمد عبدالله عنان